عرض كتاب: الشعر السوداني على منصة التاريخ: دراسة أدبية - تاريخية للفترة من عام ١٨٨١م إلى ١٩٢٤، تأليف: مصطفى عوض الله بشارة[١]

عرض: يوسف فضل حسن

مدخل

أسبغ عليَّ مؤلف هذا الكتاب فضلاً كبيراً عندما أهداني نسخة منه قبل نحو عامين أو ثلاثة، والحق أني كثيراً ما أستأنست به واتخذته ظلاً للترويح من عناء البحث العلمي المضني، ولم يكن يدر بخلدي أني سأكون في يوم من الأيام مناقشاً له، أما وقد شرفتموني بذلك فإني أرجو أن أكون عند حسن ظنكم بي بتجنب الإنحياز للكتاب، وأن أبيِّن عثرات الكتاب أكثر من العناية بما أعجبني فيه، فجُلُّه ممتع شائق، وأرجو أن يتسع صدر مؤلفه لما حزمت أمري له فما ذلك إلا لما وجدته في كتابه من إمتاع وفائدة. وقد صقل المؤلف موهبته الفذة في الكتابة والسرد الشائق بعدد من الكتب فقد سبق وأغنى المكتبة السودانية بنحو العشرين كتاباً، وله مثلها تحت الطبع، في مجالات الشعر والأدب والقصة.

أولاً: الوصف العام للكتاب

يقع هذا الكتاب في نحو ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، قسمه المؤلف إلى بابين: يعالج أولهما فترة الثورة والدولة المهدية الممتدة من ١٨٨١ حتى ١٨٩٨، ويتناول الباب الثاني الفترة من ١٨٩٨ حتى ١٩٢٤ الواقعة ضمن فترة الحكم الثنائي الإنجليزي المصري في السودان (١٨٩٨- ١٩٥٦)، ويتضمن الكتاب مقدمة ضافية

(١) قدمت هذه المداخلة في ندوة عن كتاب الشعر السوداني على منصة التاريخ، للاستاذ مصطفى عوض الله بشارة بمجمع اللغة العربية، الخرطوم، يوم الخميس ١٧ يوليو ٢٠١١م.

بقلم البروفسير عون الشريف قاسم في نحو أربع صفحات، وبعض ما كتب عن المؤلف في الصحف اليومية والمواقع الإليكترونية. كما زوده بقائمتين بالشعراء الواردة أسماؤهم في كتابه، وهم نحو خمسين شاعراً، الأولى وفق الترتيب الهجائي مع ذكر مطالع القصائد التي اعتمد عليها لكل شاعر، والثانية مصنَّفة وفقاً للعهود التاريخية التي عاش فيها هؤلاء الشعراء. وقد اعتمد المؤلف في إعداده هذا الكتاب على نحو ثلاثين مرجعاً، أراد لها أن تكون في فاتحة الكتاب. وألحق المؤلف بكتابه صوراً تاريخية ورمزية لعهود الحكم المتتالية في السودان منذ سنة ١٥٠٥ وحتى سنة ١٩٥٥.

ثانياً: عنوان الكتاب

اختار المؤلف لكتابه عنواناً مثيراً، موفقاً في جزئه الأول (العنوان الرئيس)، ومفخخ بعميق المعاني والدلالات في جزئه الثاني (العنوان الفرعي). فعنوان الكتاب الشعر السوداني على منصة التاريخ يوحي بأن المؤلف يعالج الخلفيات التاريخية التي صدرت عنها القصائد المتضمَّنة في الكتاب، والظروف التي عاشها شعراء تلك القصائد، وهو أمر برع فيه المؤلف إذ إنّه حاول، ونجح إلى حد كبير، في وضع القصائد في سياقها التاريخي يجعلها بمثابة رجع الصدى للأحداث التاريخية وصفاً واستلهاماً، وذلك وفق منهج تصنيفي تجميعي خالٍ من التعقيد؛ فيورد سرداً موجزاً للأحداث التاريخية، ويرسم مقدمة للقصيدة توضح موقعها من ذلك الحدث.

أما الجزء الثاني من العنوان وهو العنوان الفرعي، أو سمه التفسيري إن شئت، فهو يدل أولاً: على أن هذا العمل هو دراسة أدبية تاريخية، وعلى الكتاب بهذا المعنى أن يعيد تصنيف القصائد داخل كل حقبة وفقاً لموضوع القصيدة: الغزل، الرثاء، الفخر، الهجاء، ودراسة تأثيرات كل فترة تاريخية على النوع المحدَّد من القصائد من حيث: اللغة، الأسلوب، التفاعيل، الموضوع السائد .. إلخ؛ وبالمقابل أن يحلل ويفسِّر

النصوص لتوضيح إمكانية الاعتماد على شعر الفترة المحدَّدة مصدراً تاريخياً، وهو ما آمل أن أوجزه في جزء من هذه المداخلة.

ثانياً: يدل باقي العنوان التفسيري الذي وضعه المؤلف في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٢٤م، على وجود خصائص معيَّنة تميِّز الشعر السوداني الذي أنتج في هذه الفترة التاريخية، مما يبرر إدراجه في تصنيف واحد، أو قل كتاب واحد، وهو ما لم أجد له ذكراً بين دفتي هذا الكتاب. ومن المعلوم أن هذه الفترة التي حدَّدها المؤلف تضم، تحقيباً: حقبتين مختلفتين، الأولى دولة سودانية حكم فيها السودانيون أنفسهم بأنفسهم، والثانية خضع فيها السودان للاستعمار الأجنبي. كما تضم من حيث منعطفاتها وتحولاتها التاريخية أربعة تحولات أساسية: الثورة المهدية، وللثورة مشاعر ووجدان خاص، والدولة المهدية وقد شهدت تناقضات وصراعات داخلية ليس هذا مقام الحديث عنها، ومرحلة الاستعمار الأجنبي بكل أدوات استفزازه للمشاعر الوطنية، والمرحلة الأخيرة التي بدأت منذ العقد الثاني من القرن العشرين وتحول فيها الاستعمار إلى استخدام أدوات جديدة أقل استفزازاً مثل الزعامات الدينية والطائفية، والتي عبر عنها في سفر الولاء وفي تأييد هؤلاء الزعماء لبريطانيا إبَّان الحرب العالمية الأولى.

أخلص من هذا الجزء إلى أن الكتاب معبِّر عن عنوانه، الذي كان اختياره موفقاً في جزئه الأول، بيد أن العنوان التفسيري حمَّل الكتاب أكثر مما تضمنَّه، وجعل القارىء يتوقع من الكتاب ما ليس فيه.

ثالثاً: الشعر كمصدر تاريخي

اتفق مع الفلسفة العامة لهذا الكتاب في وجود علاقة جدلية بين الأدب والتاريخ وهي علاقة ناجمة من وحدة موضوعهما، وهو الإنسان. فبينما يرصد التاريخ أفعال الإنسان ومنجزاته في رحلته الزمانية، يهتم الأدب بتسجيل عواطفه وانفعالاته، ولعله من المتعذر أن نفهم الإنسان أو ندرسه دون التعرف على منجزاته وأفعاله أو دون

عواطفه وانفعالاته ووجدانه.[٢] ولا يعني هذا القول بأن العمل الشعري هو بالضرورة وثيقة تاريخية، لكنه مع ذلك مهم للمؤرخ، ليس في توثيقه لبعض الأحداث التاريخية وحسب، وإنما في ما يعكسه من روح العصر ووجدانه. وقد شكَّل الشعر مدخلاً مهماً للدراسة التاريخية في العديد من المجتمعات، فكان الشعر الجاهلي هو مفتاح معرفة تاريخ العرب قبل الإسلام، كما مثلت الملاحم اليونانية أساس دراسة المجتمع اليوناني، وغيره.

ومع تسليمنا بأهمية الشعر مصدراً تاريخياً، إلا أننا نحتاج أن نميَّز بين الشعر الذي تتبناه المجموعة ويعبِّر عنها، وبين الشعر الفردي الذي يعبِّر عن وجهة نظر جزئية تبصر الحدث التاريخي من زاوية واحدة، هي تلك التي يقف فيها الشاعر. فاعتماد الشعر الفردي مصدراً تاريخياً يتطلب مراعاة عدد من المحاذير المتمثلة في دراسة وإدراك وتبصر: الرؤية الجزئية للشاعر، موقف الشاعر من الأحداث التي ترد في قصيدته، موقف الشاعر الطبقي، اتجاهاته الفكرية، انحيازاته الاجتماعية، وغيرها.

وقد اجتهد المؤلف، الأستاذ مصطفى عوض الله بشاره، جهداً محموداً في تجميع عدد كبير من القصائد، إلا أن المنهج الذي اتبعه في التركيز على الشعر السوداني المكتوب باللغة العربية الفصيحة جعله يقع في فخ الشعر الفردي دون الشعر الذي تتبناه المجموعة، وهذه نقطة سأعود إليها بالتفصيل، مع عدم مراعاته لمحاذير الاعتماد على الشعر الفردي.

ومن ناحية أخرى فإن المؤلف قد غفل عن بعض الشعراء أصحاب الصيت مثل الشاعر إبراهيم الكردفاني، ومما نظمه قصيدته المشهورة التي يصف فيها حضرة

(٢) للمزيد حول هذا الخصوص أنظر: قاسم عبده قاسم، بين الأدب التاريخ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٦؛ حوالي ١٦٠ صفحة من القطع الصغير.

المهدي مع النبي صلى الله عليه وسلم وكيف اختاره خليفة له وأعطاه سيفه، ويقول فيها:

ورقى إلى كرسيه متسنماً * خُلِعَتْ عليه ملابسٌ من نورِ
وأقامَهُ المختارُ عنه خليفةً * في مشهدٍ بالأوليا معمورِ
فدعا إلى الدينِ الحنيفِ مجاهداً * بالسيفِ والإنذارِ والتبشيرِ

كما يبدو لي أن المؤلف تغافل عن الشعر المناوئ للثورة المهدية أو ذلك المؤيد لسياسة الحكم الثنائي في السودان، وبعضه شعر فصيح. ولهذا الشعر المناوئ قيمته التاريخية أيضاً، ولعل من أفيد ما اطلّعت عليه من هذه القصائد من الناحية التاريخية تلك التي نظمها الشيخ محمد شريف نور الدائم (أستاذ الأمام وشيخه قبل أن يفترقا)، والتي يمكن بدراستها أن تعكس جزءاً من تعاليم الإمام المهدي وما أحدثته من تحولات في المجتمع المهدوي:[٣]

.....
وتمحو ضلال المفسدين بهديه * وتنصر للشرع الكريم على النَّكر
وتهدي الصراط المستقيم بنورها * وتوعد أصحاب الحكومة بالنصر
.....
أكاذيب أبداها فمنها عن النبي * ومنها عن المولى ومنها عن الخضر
كإخباره بالخسف والمسخ للعدا * وكم في قدير من سلاح ومن تبر

(٣) وهي جزء من قصيدته المشهورة ومطلعها:

وقد جاء في عام زع * على جبل السلطان في شاطي البحر
يروم الصراط المستقيم على يدي * فبايتعه عهداً على النهي والأمر

ومن بعضها تحليل كل جميلة * ولو ذات بعل دون عقد ولا مهر
ومنها روي عن زوجة المتخلف * بما لم يكن في المسلمين ولا الكفر
ومنها أصلي في الجوامع كلها * إلى المسجد الأقصى ولم يدر ما يجري
ومنها أنا المهدي منتظر الورى * ولم يستح من عالم السر والجهر
وينهى النساء عن حلي وإن بدت * بها كان الحكم بالنتف للشعر
وينهى عن التنباك نهياً كأنما * أتى منعه في الذكر من شدة الزجر

ومن الملاحظات المهمة على شعر هذه المرحلة، وقد غلب فيها الطابع الصوفي، وانتشر فيها علم الحروف والأرقام، أن بعض الشعراء كان يوثق لبعض التواريخ المهمة في شعره ترميزاً بالحروف، أو ما يعرف في علوم اللغة العربية بـ"حساب الجُمَّل"، ذي القيمة الحسابية والذي يعتمد على التقسيم الأبجدي للحروف العربية، وأحسب أنه قد يصلح لأن يكون موضوعاً لدراسة أدبية – تاريخية ممتازة، أرجو أن يتوافر عليها الباحثون في مقبل الأيام، ومن ذلك عجز البيت الذي نظمه الشاعر الحسين الزهراء في مدح الإمام المهدي وضمنه تاريخ فتح الخرطوم: "بقبة مهدي الأنام ترى هدى"

بقبة	٢ + ١٠٠ + ٢ + ٤٠٠	=	**٥٠٤**
مهدي	٤٠ + ٥ + ٤ + ١٠	=	**٥٩**
الأنام	١ + ٣٠ + ١ + ٥٠ + ١ + ٤٠	=	**١٢٣**
ترى	٤٠٠ + ٢٠٠ + ١	=	**٦٠١**
هدى	٥ + ٤ + ١	=	**١٠**
		=	**١٢٩٧**

= عام ١٢٩٧ هـ الموافق ١٨٨٥م

وقد انتبه المؤلف، الأستاذ مصطفى عوض الله بشارة، لهذه الخاصية وأشار إليها في حاشية علق فيها على ما نظمه الشيخ محمد شريف نور الدائم في مدح الإمام المهدي، والتي يبدأها بقوله: "وقد جاءنا في عام زع"؛ فكلمة "زع" تعني عام سبعة وسبعين، وهو التاريخ الذي التحق فيه الإمام المهدي بشيخه محمد شريف نور الدائم ١٣٧٧ هـ.

رابعاً: مأزق الشعر العربي الفصيح في السودان

كان مجتمع الفونج أول مجتمع يشرئب نحو منابع الثقافة العربية، وهو مجتمع هجين عربي أفريقي تمثَّل الثقافة العربية والروح الإسلامية، كما وضَّحت في عدد من كتاباتي، تصوفاً وسلوكاً وتبنياً للأنساب العربية. وكان النتاج الشعري لهذا المجتمع هو أدب شعبي دارج في حقبته الأولى، ثم أدب شعبي مطعم بالفصحى في حقبته الثانية، ثم أدب عربي فصيح لا يخلو من شوائب العامية في الحقبة المتأخرة من عهد دولة الفونج. فالفكر السوداني لم يستخدم اللغة العربية كأداة رئيسية للتعبير الأدبي إلا في العهد المصري الأول على الأرجح، وقد أضاع في عملية الانتقال هذه نكهته ووهج تجاربه. وقد فسر حليم اليازجي أسباب هذا الانتقال ودوافعه ونتائجه في دراسة رائدة ومتميزة.(٤)

ورغم الانتقال من اللغة العامية إلى اللغة العربية الفصحى إلا أن نظم الشعر بالفصحى لم يستهو الغالبية الساحقة من الشعراء الذين ظلوا أقدر على التعبير باللغة العامية، التي يمتلكون أدواتها ويعرفون أسرارها ومواطن ثرائها ودقائق معانيها وترادفاتها، من التعبير باللغة الفصيحة التي يقسرون فيها لسانهم على الصناعة، وقد عبَّر محمد عبد الرحيم عن هذا المعنى ببراعة في قوله: "ففي حين ترى الواحد

(٤) أنظر: حليم اليازجي (١٩٨٥): السودان والحركة الأدبية، الجزء الأول، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الإنسانية، بيروت، نحو ٤٥٠ صفحة من القطع المتوسط.

من هؤلاء الشعراء يرهق نفسه ويجهدها في سبيل نظم قصيدة ثم يفرغ منها، نجد أنه قصر عنايته على اللفظ وأخضع فكره إلى اللغة. بخلاف أولئك الشعراء القوميين؛ فإنهم يحرصون كل الحرص على أن يخضعوا اللغة لأفكارهم. فيقول الواحد منهم ما يريد قوله لا ما تريد له صناعته اللغوية".[٥]

ورغم انتشار التعليم ودور العلم والجامعات في السودان، وانفتاح السودانيين الكبير على العالم العربي اجتماعياً وثقافياً، وامتلاك عدد كبير من الشعراء السودانيين ناصية اللغة العربية وبراعتهم في النظم بها إلاَّ أن السيادة الشعرية في هذا البلد، بكل أقاليمه، ما زالت، فيما يبدو لي، للشعر المكتوب باللغة العامية إلى حد كبير.

وقد أضير هذا الكتاب بتركيز المؤلف على الشعر الفصيح دون العامي، فحرم القارئ من عدد مقدر من القصائد ذات القيمة التاريخية الكبيرة التي عبَّرت عن المرحلة التاريخية وتطلعاتها؛ فلم يرد في الكتاب ذكر للشاعر محمد ود تميم، أحد أبرز شعراء المدائح في العهد التركي، ورمانة شعراء المهدي، حتى أن الإمام المهدي نصَّبه أميراً من أمراء المهدية. كما لم يذكر الكتاب الشاعر أحمد ود سليمان، خير من صوَّر التبدلات التي أحدثتها المهدية في السودان وما أدخلته من تغيير جذري في حياة السودانيين، وحرم القارئ من ترديد قصيدة الشاعر أب شريعة التي عبَّرت عن برنامج الدعوة المهدية خارج السودان، فنظم متخيلاً مستقبلها وهي تفتح القاهرة فيستقبل المصريون كتائب المهدية بالأزاهر، ثم تتوجه الجيوش لحصار الشام حتى تستسلم، ثم ترفع راية المهدي في مكة:

بعد ما مصر طيبنا * صبرنا ولمّ غايبنا
تركنا العايله وشَايبنا * قضاهُ أحكامنا ونايبنا
تقول شي شي كتايبنا * ويعود بالُبوستَه آيبنا

(٥) محمد عبد الرحيم، نفثات اليراع، شركة الطبع والنشر، الطبعة الأولى الخرطوم، ١٩٣٢، ص ١٤.

آل الشام يكاتبــونا * بلين القول يخاطبونا
يهادونا ويعاتبــونا * يقولوا ليش تحاربونا
تحاصرونا وتزربونا * سمعنا وطعنا سيبونا
.....
يحوم بي مكة حايمنا * ونرضى ويرضى لايمنا
جميع نضبح ولايمنا * ويصبح ناوس صايمنا
يقيم الليل قايمـنا * وينوم ما شاء نايمـنا

أما الشعر المناوئ للمهدية المكتوب باللغة العامية ففيه من الثراء ما يجعله مصدراً خصباً للدراسة التاريخية، وفي شرح المواقف الاجتماعية التي شهدتها تلك الفترة، ومن هذه القصائد الشعر الذي تغنى به الشايقية معبرين عن سخطهم على المهدية وتعاليمها التي وضعت حداً للملاهي والمسكرات والخمور، وتلقي باللائمة على معلمه الشيخ محمد خير:

لا مريس ولا طنيبير * ولا تنباك ولا سنجير
وده كله من مهديك الكبير * وعقرباً يطقك يا محمد خير

ومنه الشعر الذي تغنى به الشكرية احتجاجاً على سياسات الخليفة عبد الله التعايشي الاقتصادية، سياسة التزرعة، وتعكس الأحوال الإقليمية والدولية في ذلك الوقت، حيث كانت المهدية فريسة تهم بالانقضاض عليها قوى الاستعمار الخارجية:

ناســاً قُـبَاَحْ من الغربْ يوم جوْناَ
جابوا التّزْرعة ... ومن البلدْ مرقُوناَ
يابا النَقس .... يا الإنجليزْ ألفـوَناَ

أو قول محمد أحمد عوض الكريم أبو سن (الحردلو):

إنْ طال الوَبـَرْ.... وَاسِيْهُ بالجزِّه
وإمَّا عمَّ نيـلْ .... ما فـرَّخَتْ وِزَّه
كانْ المهدي داك ولداً قدلْ فوق عزَّه
حَتْ ود البصير سَوَّانا في طيز وِزَّه

أو قوله في مرافعته التاريخية عن عدلان في محكمة الخليفة عبد الله التعايشي، والتي أصبحت شعراً يسير به الركبان، فذاع وانتشر حتى يومنا هذا:

ده إن أدَّاكْ وكتّرْ ما بِقول أديتْ
أبْ دَرقاً موشَّح كلُّو بالسُّوميت
أبْ رسوّه البكُر حجّر ورود سيتيت
كاتال في الخلا وعقبان كريم في البيتْ

خاتمة

أرجو أن أكون قد وفقت في فتح أبواب جديدة لنقاش هذا العمل القيم الموسوم الشعر السوداني على منصة التاريخ: دراسة أدبية – تاريخية للفترة من عام ١٨٨١م إلى ١٩٢٤م، وقد استمتعت غاية الاستمتاع بقراءته والتعليق عليه، والحق أنه ما كان لهذا الكتاب أن يدفعني لطرح مجمل ما جاء في هذه المداخلة من ملاحظات وإضافات لولا ما تميَّز به من حبكة في سرده التاريخي الموجز بإحكام، وانتقائه لروائع من الشعر السوداني المشحون بالدلالات، فالشكر أجزله لمؤلف الكتاب الأستاذ مصطفى عوض الله بشارة، ونسأله إلا يضن على المكتبة السودانية بروائع كتاباته ومنشوراته. والله الموفق.